

قرينة المناسبة في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد بن باديس ودلالاتها من خلال المنظور السياقي

The evidence of the presumption in the interpretation of the noble
-Quran by the Imam Abd al
Hamid bin badis and its implications through the contextual
Perspective

د/ يحيى بوعتو

Yahia BOUATTOU

جامعة البليدة 2 علي لونيبي

yahiabouattou@gmail.com

تاريخ القبول: 2026/01/30

تاريخ الإرسال: 2024/10/20

الملخص:

قد يعتري الكلام غموض وتعمية فيصعب إدراك المقصد منه والمراد؛ أو تتزاحم معانيه وتتداخل دلالاته في الظاهر فيلج بذلك نفق التعقيد، فلعلّ السبيل لبيان هو توظيف القرائن اللغوية - وخاصة إذا كانت متضافرة - فهي الأقدر على دفع الغموض ورفع اللبس عن الكلام، وبها تترجح معانيه المقصودة. وقرينة المناسبة هي واحدة من بين القرائن الهامة في كشف دلالات الكلام، ولاسيما إذا ما تعلّق ذلك بكلام الله تعالى، فمن علمائنا الذين اهتموا في دراستهم القرآنية بتوظيف قرينة المناسبة السياقية في تفسير آي القرآن الكريم - الإمام عبد الحميد بن باديس.

إذ تهدف هذه الورقة البحثية إلى إبراز إسهامات الشيخ في هذا الصدد، وتبيين منحنى تفسيره للقرآن الكريم من خلال طرح تساؤل: هل توظيف قرينة المناسبة في تفسير القرآن الكريم للشيخ عبد الحميد بن باديس رسمت منحنى تفسيرياً متميزاً في كشف دلالات القرآن الكريم ومعانيه بنظرة سياقية شمولية؟

فكانت أهم نتائج هذا البحث بأنه يبرز اهتمام عالم من علماء الجزائر - الشيخ عبد الحميد بن باديس - وإسهاماته في هذا العلم الدقيق، وتوظيفه في استنباط الدلالات القرآنية من خلال المزوجة بين الدرس القرآني والدرس اللغوي. كما يشير إلى أنّ المناسبة القرآنية حقل ثرّ، ومجال مفتوح أمام اجتهادات الباحثين لاستئثار دلالات القرآن ومعانيه، لأنّ القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه، ومباحثه متجددة وممتدة. الكلمات المفتاحية: القرينة؛ المناسبة؛ الدلالة؛ القرآن؛ السياق.

Abstract

Speech may at times be ambiguous or obscure, making its intended meaning difficult to perceive, or its apparent meanings may overlap, leading to complexity. In such cases, linguistic clues—especially when combined—play a crucial role in clarifying meaning, removing ambiguity, and determining the intended sense of discourse. Among the most important of these clues is *contextual appropriateness*, particularly in relation to the interpretation of the Qur'an.

One of the scholars who paid notable attention to employing this contextual clue in Qur'anic exegesis is the Algerian scholar Imam 'Abd al-Ḥamīd Ibn Bādīs. This study seeks to highlight his contributions in this field and to examine his exegetical approach through the following question: Did Ibn Bādīs's use of contextual appropriateness establish a distinctive interpretive method that reveals the meanings and indications of the Qur'an through a comprehensive contextual perspective? The study concludes that Ibn Bādīs made significant contributions by integrating linguistic analysis with Qur'anic interpretation. It also shows that Qur'anic contextual coherence remains a rich and open field for scholarly inquiry, as the meanings of the Qur'an are continually renewed and its wonders never cease

Key words: clue (indicator); appropriateness presumption; connotation; context.

مقدمة:

إذا كانت الوظائف الأساسية للغة هي التواصل والتبليغ؛ أو التعبير عن الأغراض؛ أو الإبانة؛ أو نقل الأفكار؛ أو نقول هي حالة اجتماعية... فإن الوقوف على معاني الكلام المنجز، والتقاط دلالاته وتصيدها هو الغرض المطلوب، والمقصد المراد من رصف وحداته اللغوية، فلا سبيل إلى إدراك ذلك وبلوغ المراد إلا بتوظيف القرائن اللغوية، وغير اللغوية، اللفظية منها والحالية، ولعل من بين القرائن الهامة في استنباط دلالات الكلام ومعانيه قرينة (المناسبة)، وبخاصة إذا ما تعلق الأمر بكلام الله تعالى، قال ولي الدين الملوي: "قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا"¹، وهذا بالنظر إلى السياق القرآني، إذ القرآن وحدة كبرى متناسقة مترابطة يفسر بعضها بعضا، لأن سورته وآياته متعلقة بعضها آخذ برقاب بعض في نظم محكم دقيق، ورصف عجيب بديع.

وعلى هذا المنحى السياقي سار العلامة ابن باديس في تفسيره المتميز للقرآن الكريم، معتمدا في منهجه التفسيري لكلام الله تعالى الموسوم بـ (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) على تضافر القرائن، ومنها توظيف السياق اللغوي (القرآني)، ومن بين قرائنه قرينة المناسبة، بالإضافة إلى السياق غير اللغوي كأسباب النزول والسيرة النبوية، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم قصد فهم الآيات القرآنية، واستنباط دلالاتها، والوقوف على معانيها وأسرارها.

فالملاحظ أن قرينة المناسبة أكثر توظيفا وحضورا عند ابن باديس في تفسيره للقرآن الكريم، في حين تتفاوت التفاسير المشهورة في توظيف هذه القرينة واستعمالها، وإن وظفت بقوة كما هو الحال في التفسير الكبير للإمام الرازي من الأوائل، وتفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور من المحدثين المعاصرين للشيخ ابن باديس نجد تفاوتاً في فهم دلالات المناسبة في الآية الواحدة، وفي خواتم ومطالع السور...

فكان هذا من دواعي اختيار هذه الورقة البحثية الموسومة بـ (قرينة المناسبة في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد بن باديس ودلالاتها من خلال المنظور السياقي).
إذ تهدف هذه الدراسة أساساً إلى إبراز إسهامات الشيخ المتميزة في المزاوجة بين الدرس القرآني والدرس اللغوي في فهم الخطاب القرآني، وإدراك معانيه ودلالاته الإيحائية.

===== قرينة المناسبة في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد بن باديس ودلالاتها من خلال المنظور السياقي

الإشكالية المطروحة: هل توظيف قرينة (المناسبة) في تفسير القرآن الكريم للشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال المنظور السياقي رسمت منحى تفسيريًا متميزًا في كشف دلالات القرآن الكريم ومعانيه بنظرة شمولية؟

ولمعالجة هذه الورقة البحثية اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي لتوضيح الإشكالية وبسطها وفق خطة؛ أو بنية مكونة من مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة:

- **المطلب الأول:** المناسبة والسياق

- **المطلب الثاني:** المناسبة والدلالة

- **المطلب الثالث:** نماذج مختارة من توظيف المناسبة ودلالاتها في تفسير ابن باديس.

المطلب الأول: المناسبة والسياق

"فمن محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً"²، وهذا ما يمتاز به كلام الله تعالى، بل من سمات القرآن الحكيم ترابط آياته وانسجامها، ودقة رصف كلماته وألفاظه، وإعجاز نظمها، وروعة بلاغته، وذروة فصاحته، قال الرازي: "فارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم"³.

ومن أوصاف القرآن "ما يلاحظ من تناسب وترابط متين بين سور الكتاب في ترتيبها الثابت في المصحف الإمام، فإنّ بعضها أخذ برقاب بعض في نظم عجيب معجز"⁴، حتى قيل بأنّ: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"، وهذا ممّا حفز لفيفا من العلماء على تتبع هذه اللطائف، وإبراز كثير من دلالات أي القرآن الكريم وسوره لربط بينها.

وكلّ هذا بفضل توظيف قرينة المناسبة، وإن كان بعضهم تخلّى عن هذا العلم لدقته وعدم الإقبال عليه كما روي عن ابن العربي المالكي أنّه قال: "ثمّ فتح الله لنا فيه، فلمّا لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه"⁵، أو لما يفضي إليه في الظاهر من التكلف في تتبع الدلالات الخفية لبعض أوجه المناسبة بين الآيات والسور، غير أنّ هذه القرينة لها فوائد جليّة كما قال صبحي صالح: "والحق أنّ الذي ينبغي التنقيب عنه والاستيثاق من نتائجه هو بالمقام الأول وجه المناسبة بين الآيات..."⁶، وقال محقق كتاب البرهان في تناسب سور القرآن: "وكيفما تكن مواقف العلماء من المناسبة بين الآي والسور ومهما يتسم به توجيههم للمناسبة من طبع أو تكلف فإن ما قاموا به قد أثمر فوائد جمّة، فقد ساعد على إبراز ما بين أجزاء القرآن من لحمة متينة، فإنّ بعضه أخذ بأعناق بعض في تأليف محكم حاله حال البناء المتين المتلائم الأجزاء، وكالكلمة الواحدة متسق المعاني منتظم المباني، ومن محاسن الكلام عند الأئمة أن يرتبط بعضه ببعض"⁷.

وبما أنّ قرينة المناسبة لها علاقة وطيدة بالسياق وخاصة السياق اللغوي، بل هي قرينة من قرائنه في إضافة معنى من معاني الكلام الذي يقتضيه السياق؛ أو ترجيح المعنى المراد منه يمكن أن نُخرج على مفهوم السياق وتعريفاته.

الفرع الأول: تعريف السياق

أولاً: السياق لغة: قال أحمد بن فارس: "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدّ الشيء، يقال ساق يسوق سوقاً ما استيق من الدواب، ويقال سقت إلي امرأتي، أي صداقها... والجمع: أسواق، والساق

للإنسان وغيره، والجمع: سُوق، وإنما سميت بذلك لأنّ الماشي ينساق عليها⁸، وقال ابن منظور: "السوق معروف: ساق الإبل وغيرها، يسوقها سوقا وسياقا... والمساوقة المتابعة، كأنّ بعضها يسوق بعضها..."⁹، وفي القاموس المحيط: "السياق ككتاب المهر... والمنساق التابع والقريب... وتساقط الإبل تتابعت... والغنم تزاحمت في السير"¹⁰.

فالملاحظ أنّ المعاجم العربيّة من خلال ما أوردناه أشارت إلى المعنى الغالب للسياق لغويا وهو التتابع.

كما نجد دلالات متقاربة لهذه المعاني في القرآن الكريم، ففي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة: 30)، قال الطاهر ابن عاشور: "المساق: مصدر ميمي (لـ ساق) وهو تسيير ماش أمام مسيره إلى حيث يريد، وهو هنا مجاز مستعمل في معنى الإحضار والإيصال إلى حيث يلقي جزاء ربّه"¹¹. وفي أواخر سورة السجدة قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾، نسوق: إزجاء الماشي من ورائه، والماء ماء المزن، وسوقه إلى الأرض هو سوق السحاب الحاملة إياه بالرياح التي تنقل السحاب من جو إلى جو، فشبهت هيئة الرياح والسحاب بهيئة السائق للدابة¹².

وفي قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (الزمر: 73)، قال في حاشية الصاوي: "وفي المعنى: سوق المؤمنين سوق مراكبهم، لأنهم يذهبون راكبين، فيسرع بهم إلى دار الكرامة والرضوان... زمرا: أي جماعات عل حساب قربهم ومراتبهم"¹³.

أمّا في دائرة المعارف فذكرت: "سياق الكلام: أسلوبه، وجاءت هذه الكلمة في سياق الكلام أي في ضمنه"¹⁴.

ثانيا: السياق اصطلاحاً: الباحث في موروثنا اللغوي الزاخر يجد بعض الإشارات لمفهوم السياق وتعريفاته اللغوية وغير اللغوية منطوية بين ثناياه وتضاعيفه نحو تعريف أبي محمد السجلماسي (ت 704هـ) قال: "السياق: هو ربط القول بغرض مقصود على القصد الأول"¹⁵.

وقريب من هذا التعريف ما جاء في حاشية العطار لحسن العطار "قرينة السياق هي: ما يؤخذ من لاحق الكلام الدال على خصوص المقصود أو سابقه"¹⁶.

كما نجد أن ابن قيم الجوزية (ت 751هـ) أشار إلى أهمية قرينة السياق في تعيين المراد من الكلام وتبيينه، وتقييد مطلقه وتخصيص عامه من بين الاستعمالات المترجمة، وكشف دلالاته المتنوعة ومعانيه المتقاطرة، وقال في كتابه بدائع الفوائد: "السياق يرشد إلى تبين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد والتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته"¹⁷.

وكذلك الإمام الشاطبي (ت 790هـ) صاحب الموافقات قد تطرّق إلى قيمة السياق من خلال تفريقه بين "ألفاظ وعبارات دالة على معان مطلقة، وهي الدلالة الأصلية تشترك فيها جميع الألسن، وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين، وألفاظ وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة، وهي الدلالة التابعة التي يختص بها لسان العرب"¹⁸.

فالأولى (معاني مطلقة) تفهم من السياق الذي لا يحتاج إلى جهد كبير لإدراكها، وهذا كما عبر عنه الشاطبي بقوله: "فإنّه إذا حصل في الوجود فعل لزيد مثلاً كالقيام ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام تأتي له ما أراد من غير كلفة، ومن هذه الجهة يمكن في لسان العرب الإخبار عن أقوال الأولين

===== قرينة المناسبة في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد بن باديس ودلالاتها من خلال المنظور السياقي
ممن ليسوا من أهل اللغة العربية، وحكاية كلامهم، ويتأتى في لسان العجم حكاية أقوال العرب والإخبار
عنها، وهذا لا إشكال فيه¹⁹.

أما الثانية (المعاني المقيدة) فهي التي تبرز قيمة السياق وأهميته في تحديد معاني الكلام وترجيحها،
وهذا ما أشار إليه الشاطبي في قوله: "وأما الجهة الثانية: ألفاظ وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة
وهي الدلالة التابعة فهي التي يختص لسان العرب في تلك الحكاية وذلك الإخبار، فإن كل خبر يقتضي في
هذه الجهة أمورا خادمة لذلك الإخبار بحسب المخبر والمخبر عنه، ونفس الأخبار في الحال
والمساق، ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك، وذلك أنك تقول في
ابتداء الإخبار (قام زيد) إن لم تكن ثم عناية بالمخبر عنه بل بالخبر، فإن كانت العناية بالمخبر عنه قلت
(زيد قام)، وفي جواب السؤال أو ما هو منزل تلك المنزلة (أن زيدا قام)، وفي جواب المنكر لقيامه (والله
إن زيدا قام)... وبحسب ما يقصد في مساق الأخبار وما يعطيه مقتضى الحال، إلى غير ذلك من الأمور
التي لا يمكن حصرها²⁰.

إضافة إلى ما سبق يمكن القول بأن السياق اللغوي: (هو عبارة عن علاقة وحدات لغوية معينة
متواشجة فيما بينها، ومتجاورة في السلسلة الكلامية ضمن خطاب معين منسجم يزيح غموض الكلمة؛ أو
الكلام، ويرجح المعنى المراد الذي من أجله سيقّت هذه الوحدات وفق نظام لغوي محكم البنية).
فإن كانت هذه التعريفات والمفاهيم السياقية تشير في مجملها إلى السياق اللغوي على وجه
الخصوص فإن كثيرا من العلماء والباحثين لم يستغنوا عن السياق غير اللغوي لأهميته الكبيرة في تحديد
معنى الكلمة في سياقها وترجيحه من بين المعاني المتزاحمة، وفهم الكلام، قال محمد مبارك: "ويتعدد
الاستعمال خلال العصور، وفي مختلف المناسبات، وشتى البيئات يتم للكلمة أكثر من معنى، ويجتمع لها
أكثر من دلالة، ويبرز أحدهما حين استعمال الكلمة في جملة معينة، وسياق محدد من الكلام... فلا يعين
أحد هذه المعاني الموجودة بالقوة في لفظ الكلمات، ولا يخرجها من حيز القوة إلى حيز الفعل إلا استعمالها
في جملة من الكلام، ولهذا كان للسياق قيمة كبرى في تحديد المعاني، وفهم الكلام"²¹.

فإدراك دلالة الألفاظ، وفهم معاني الكلمات لا يكون إلا باختيار اللفظة أو الوحدة اللسانية ووضعها
في مكانها المناسب، وعشها الطبيعي؛ أو في رصفها مخصوص الذي تشكله الظروف والملابسات.
قال صاحب كتاب نظرية المعنى في النقد العربي: "وفكرة القلب أو السياق هذه فكرة هامة،
وخصوصا في ما يتعلق بصلتها بالكلمات، فالكلمات لا تعدو أن تكون رموزا لأشياء كلية هامة، وحينئذ
ينبغي علينا أن نبحث عن الإطار؛ أولا، ثم نبحث عن الكلمات ثانيا"²²، والإطار السياقي تدلّ عليه القرائن
اللفظية (وهي من السياق اللغوي)، والقرائن الحالية.

أما السياق غير لغوي أو ما يطلق عليه بالسياق الخارجي؛ أو سياق الموقف المحاط بالظروف (المقامي،
والعاطفي، والثقافي)؛ أو ما عبر عنه علماء البلاغة العربية قديما بالمقام ومقتضى الحال فهو كما قال تمام
حسان: "وكل ما كان وصف المقام أكثر تفصيلا كان المعنى الدلالي الذي نريد الوصول إليه أكثر وضوحا
في النهاية"²³.

وقال فهمي حجازي: "وما المعنى إلا حصيلة المواقف التي استخدم فيها الرمز اللغوي، ولذا
فالوسيلة العلمية لمعرفة دلالة كل كلمة من الكلمات؛ أو عبارة من العبارات تتلخص في بحث الظروف
والملابسات التي استخدمت فيها الكلمة، فاكتمست معناها، وقدرتها الإيحائية"²⁴.

أما علم المناسبة فهو علم شريف ودقيق، لا يوفق لدقائقه ونكته إلا الراسخ في علمي القرآن الكريم والبيان، لأنه علم خاص يهتم بارتباط أي القرآن الكريم بعضها ببعض "حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني"²⁵، ويزيح اللثام عن أوجه المناسبة بين اللاحق من الآيات والسابق، ويكشف حقيقة رصف وقيمة نظم الآيات والسور القرآنية.

الفرع الثاني: تعريف المناسبة

أولاً: المناسبة لغة: هي مصدر من ناسب يناسب مناسبة.

- قال أحمد بن فارس في مقاييس اللغة: "النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء، ومنه النسب سمي لاتصاله وللاتصال به"²⁶.

- وقال الزمخشري في أساس البلاغة: "ومن المجاز: بين الشيئين مناسبة وتناسب"²⁷.

- وذكر الزبيدي في تاج العروس المناسبة فقال: "ومن المجاز: المناسبة: المشاكلة، يقال: بين الشيئين مناسبة وتناسب؛ أي: مشاكلة وتشاكل، وكذا قولهم: لا نسبة بينهما، وبينهما نسبة قرابة"²⁸.

- وفي البرهان للزركشي قال: "المناسبة في اللغة: المقاربة والمشاكلة، وفلان يناسب فلاناً أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسب الذي هو القريب المتصل... ومنه المناسبة في العلة في باب القياس التي تعني الوصف المقارب للحكم"²⁹.

فمن خلال التعريفات اللغوية للمناسبة يظهر أنّ معانيها في الجملة تدور حول الاتصال والتقارب والترابط والمشاكلة والتشابه، وكلها تتقاطع مع التعريفات الاصطلاحية للمناسبة كما سيأتي.

ثانياً: علم المناسبة اصطلاحاً: له تعريفات كثيرة منها:

- تعريف القاضي أبي بكر بن العربي المالكي (ت 543هـ) لعلم المناسبة قال: "هو ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني"³⁰.

- وقال البقاعي (ت 885هـ): "علم مناسبات القرآن: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال"³¹.

- أما السيوطي (ت 911هـ) فقال: "مناسبات القرآن العظيم هي: المعنى الذي يربط بين سوره وآياته"³². فترابط الكلام وتشابهه، وتعلق أجزائه وترتيبها يعتبر الشرط الأساس في علم المناسبة كما جاء في التعريفات المذكورة آنفاً، وقد أشار إلى هذا الإمام عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعز قال: "المناسبة علم حسن؛ ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر"³³.

فعلم المناسبة القرآني هو العلم الذي نتوصل به إلى المعاني المنطوية بين ثنايا الآي القرآن الكريم وسوره من خلال ترابط بعضها ببعض وترتيب أجزائها، وكشف أسرارها البلاغية، وهذا في إطار؛ أو حقل سياقاتها المتشابكة، قال محمد بازمول قال: "إنّ علم المناسبات هو: معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بعلل ترتيب أجزاء القرآن العظيم بعضها ببعض"³⁴.

ويمكن القول من خلال ما سبق بأنّ علم المناسبة القرآني: (هو العلم الذي به نتوصل إلى معرفة المعاني المتعلقة بين أجزاء القرآن الكريم وسوره، وترابط آياته وألفاظه المتواشجة برابط دلالي قائم، وكشف أسرارها البلاغية، وحكمها ولطائفها).

فمن خلال ما تطرقت إليه المعاجم اللغوية من معانٍ للمناسبة، وما ذكر من تعريفات اصطلاحية لهذا العلم الدقيق يتبلور للعيان جلياً مفهوم المناسبة في القرآن الكريم بأنّها: "المشاكلة والمقاربة، ومرجعها

===== قرينة المناسبة في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد بن باديس ودلالاتها من خلال المنظور السياقي

في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب... والنظيرين والضدين ونحوه³⁵.

وهذا العلم من أشرف العلوم وأنفعها وألطفها كما قال الإمام الزركشي في البرهان: "واعلم أنّ المناسبة علم شريف، تحرر به العقول، ويعرف به القدر الهائل فيما يقول... ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول... وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها أخذا بأعناق بعض، فيقوي بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء"³⁶.

فلما كان القرآن الكريم توقيفياً من حيث ترتيب سورته وآياته فإننا ندرك من خلال رصف القرآن ونظمه بهذه الكيفية أنّه ما قدمت هذه السورة على تلك وما استفتح بسورة وختمت وما قدمت آية على آية إلاّ لمناسبة وحكمة قد تظهر جليّة أو تخفى لا يدركها إلاّ العالمون، وفي ذلك علم جم ولطائف بديعة فيها من الإعجاز ما يبهر العقل السليم الذواق لبيان القرآن الكريم وسحره، قال الشيخ ولي الدين الملوي: "قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنّها على حسب الوقائع المفرقة، وفصل الخطاب أنّها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً... والذي ينبغي في كلّ آية أن يبحث أول كلّ شيء عن كونها مكملّة لما قبلها أو مستقلّة، ثمّ المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها، وما سيقّت له"³⁷.

وملخص ذلك كلّ أنّه أنّ مفهوم المناسبة ما أورده السيوطي عن بعض متأخري زمانه قال: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنّك تنظر إلى الغرض الذي سيقّت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذكر الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكليّ المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كلّ آية وآية، وفي كلّ سورة وسورة"³⁸.

ولهذا العلم التوفيقي أهمية بمكان في فهم كلام الله تعالى إذ ينبني على اجتهاد الراسخين في العلم لدقته، ويحتاج إلى فهم دقيق لمقاصد القرآن الكريم، وتذوق سحر بيان الآي الكريم، وإدراك نظم المعجز، قال الإمام البقاعي: "وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو"³⁹.

ويشترط لهذا العلم ما يشترط في تفسير القرآن الكريم بالرأي، ومن أهمها:

- أن لا تكون المناسبة متعارضة مع اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن العظيم.

- وأن لا تكون متعارضة مع الشرع الحكيم.

- وأن تكون المناسبة منسجمة انسجاماً تاماً مع السياق، والسباق واللاحق.

ويمكن القول بأنّ علم المناسبة ينضوي في باب السياق، لأنّ المناسبة لا يمكن إدراكها إلاّ من خلال السياق، بل عدّ العلماء من شروط المناسبة أن تكون منسجمة مع السياق فالمناسبة القرآنيّة قرينة من قرائن السياق القرآني بحيث لا يمكن إدراك دلالات المناسبة العامة والخاصة الموظفة في فهم الكلام إلاّ بمنظور سياقي.

فعلى سبيل المثال لا الحصر استنباط الشيخ عبد الحميد بن باديس لدلالات ومعاني الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: 74)، فبفضل توظيفه قرينة المناسبة بين هذه الآية والآيات التي قبلها في الترتيب من خلال سياقها القرآني تكشف لديه دلالات هذه الآية الكريمة ومعانيها قال: "المناسبة لما وصفهم في الآيات المتقدمة بما دلّ على أنهم أهل خير وكمال في أنفسهم وصفهم في هذه الآية بما دلّ على محبتهم الخير والكمال لغيرهم من قرابتهم أزواجهم وذريّتهم ومن سواهم، وقدم الأزواج على الذريّة لأنهم الألفق، ولأنهم الأصل... فلذلك كان لزاما لتتيميم وصف عباد الرحمن ذكر محبتهم الخير والكمال لغيرهم"⁴⁰.

المطلب الثاني: المناسبة والدلالة

لما كانت المناسبة توفيقية ومحلّ اجتهد لدى العلماء والباحثين، كما أسلفنا في المطلب السابق، بحيث يتفاوت العلماء والباحثون في استنباط دلالاتها من الكلام، لدقة هذا العلم، فهو بذلك يهتم بالمعنى المتوخى من الكلام، ويبحث في دلالات ترابط وحداته اللغوية، ووجه المناسبة بين أجزائه، وهذا من صميم الدرس الدلالي، إذ علم الدلالة "يعنى بدراسة كلّ ما يسهم في المعنى"⁴¹.

الفرع الأول: الدلالة لغة واصطلاحاً

أولاً: الدلالة لغة: مشتقة من فعل (دلّ) : أي أرشد إلى الشيء وهده إليه.

- قال الزمخشري في أساس البلاغة: "(د ل ل) دلّه على الطريق، وهو دليل المفازة، وأدلت الطريق اهتديت إليه..."⁴².

- وقال في القاموس المحيط: "ودلّه عليه دلالة... وسدّه إليه"⁴³، والمصدر دلالة ودلالة.

وقد ذكر هذا فعل (دلّ) في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منها:

- في سورة سبأ الآية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: 7]، وفي السورة نفسها حكاية عن موت سليمان عليه السلام، وعدم اطلاع الجنّ والشياطين على الغيب قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: 14].

- وفي سورة الصف الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: 10].

- وأيضاً في سورة طه الآية: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه: 40].

فالملاحظ أنّ لفظة (دلّ) في الآيات الكريمات تدور معانيها حول الإرشاد والهداية والتوجيه.

- ويقال أيضاً: "دلولة: أي ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، من مثل دلالة الألفاظ على معانيها، والرموز أو الإشارات على ما تحيل إليه، وكل ذلك قائم في مختلف أنواع الأنساق الدالة، سواء كانت تلك الدلالة عن قصد ونية ممن كانت منه الدلالة؛ أو لم تقترب بقصد مبيت"⁴⁴.

فدلالة اللفظ هي "هدايته إلى معناه وتوجيهه إليه ... وهي بهذا المعنى لا تخرج لغة عن إبانة الشيء وإيضاحه، والإرشاد إلى معناه والهداية والبيان"⁴⁵.

ثانياً: الدلالة اصطلاحاً

- عرّف الراغب الأصفهاني (ت 502هـ) الدلالة بقوله: "الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالات الإشارات والرموز والكتابة، والعقود في الحساب، وسواء أكان ذلك بقصد من يجعله دلالة أو لم يكن بقصد، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنّه حيّ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: 14]"⁴⁶.
- وعرّفها الشريف الجرجاني - صاحب التعريفات - (ت 816 هـ) الدلالة بقوله: "هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول"⁴⁷.
- يفهم من هذا التعريف أنّ الدلالة هي تلازم حاصل بين الدال (الشيء الأول)، والمدلول (الشيء الثاني)، بحيث تعلم حالة المدلول من حالة أخرى، وهي (الدال) عليها، فهي - إذا - لا تخرج عن تضافر الدال والمدلول، حيث تصبح للكلمات والعلامات اللغوية معان ودلالات، يصطلح على مدلولها"⁴⁸.
- ثالثاً: أما علم الدلالة (هذا المركب الإضافي):** فهو من العلوم الحديثة يشمل حقولاً لغوية متعددة - فقد تباينت تعريفاته وتعددت عند الباحثين المختصين إلى ما يقارب خمسين تعريفاً أو يزيد ومن أشهرها:
- علم الدلالة هو "العلم الذي يهتم بدراسة معاني الكلمات"⁴⁹؛ أو هو "العلم الذي يهتم بدراسة معنى الكلمة"⁵⁰.
- ولعلّ من أوسع التعريفات في هذا المنحى الذي يشارك التعريفين السابقين في تخصيص المعنى بالدراسة بالإضافة إلى اتساعه لتحديد العلاقة بين علم الدلالة واللسانيات التعريف القائل بأنّ علم الدلالة هو: "فرع من علم اللغة يدرس العلاقة بين الرمز اللغوي ومعناه، ويدرس تطور معاني الكلمات التاريخية، وتنوع المعاني والمجاز اللغوي، والعلاقات بين كلمات اللغة"⁵¹.
- وما نلاحظه على هذه التعريفات أنّها قصرت هذا العلم - علم الدلالة - على دراسة الرمز اللغوي الدال على معنى أو معان مخصوصة، بيد أنّ هناك من الباحثين في هذا المضمار من يرى بأنّ علم الدلالة هو العلم الذي يهتم بنظرية المعنى من غير قيد، ودون تخصيص الرمز اللغوي الدال على معنى بالدراسة، إنّما كلّ رمز على إطلاقه مهما كان نوعه يفضي لمعنى معين أو يدلّ عليه هو حقل من حقول علم الدلالة.
- فالجانب الدلالي في الدرس اللغوي "يختص بدراسة المعنى الذي تخلص إليه المستويات الأخرى، وبذلك فهو يتناول معاني الكلمات"⁵²، فلا يمكن استساغ تركيب لغوي من دون أبنية أو وحدات دالة، فالدلالة اللغوية امتداد طبعي للتركيب، ودلالة الألفاظ والتركيب تخضع للاستعمال، وبعبارة أخرى تتغير الدلالة بتغير الاستعمال فهي غير قارة، كما أنّها موقوفة؛ أو تتوقف في الأصل على مستويات اللغة الثلاثة القارة (الصوتي والصرفي والتركيب) بشقيه الثابت والمتغير).
- فلا يمكن البتة إدراك دلالة الكلام ومراده إلّا من خلال هذه المستويات، مع أنّه لا يمكن الفصل بين هذه المستويات اللغوية والجوانب الدلالية والتداولية، لأنّ نظام اللغة نظام اتصالي يقوم على استدعاء هذه المستويات جميعاً وتضافرها في عملية التواصل والتبليغ، والدلالة في حقيقتها هي غاية هذه المستويات جميعاً، بل لا يتجلى بوضوح مستوى من مستويات اللغة إلّا بالدلالة.
- ويظهر هذا بوضوح - مثلاً - في ما ذكره ابن جني في الخصائص باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني قال: "اعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف وقد نبه إليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته... وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان، إنّها تأتي للاضطراب

والحركة، النَّقْزَان والغليان والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال، ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حدّاه، ومنهاج ما مثلاه، وذلك أنّك تجد المصادر الرباعيّة المضعّفة تأتي للتكرير نحو: الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقة والصعصعة والجرجرة والقرقرة، ووجدت أيضا (الفعل) في المصادر والصفات إنّها تأتي للسرعة نحو: البشكى والجمزى والولقى ... ومن ذلك أنّهم جعلوا (استفعل) في أكثر الأمر للطلب، نحو: استسقى واستطعم ...⁵³.

فدلالات المناسبة قد تكون ظاهرة في متناول الباحثين والمهتمين، وقد تدق لا تكاد تعلم وخاصة إذا ما كانت الألفاظ تحمل دلالات إيحائية، لأنّ الألفاظ حاملة للمعاني مهما كان نوعها؛ أو هي أوعية للمعاني على حد تعبير إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني، بيد أنّها متغيرة وكثير من الكلمات لا تثبت على معناها الأول بسبب تغير استعمالها الخاضعة للتطور الاجتماعي والثقافي والسياسي واللّغوي... فكان لزاما تتبع تغيرات المعاني وإدراك أنواعها قصد الوقوف على دلالات المناسبة وإدراك معانيها المتوخاة من سياقها.

ولقد أحصى علماء الدلالة للمعنى خمسة أنواع نجملها على النحو التالي:

- **المعنى الأساسي** أو المركزي أو الأولي وهو أصل الاتصال يتسم بالثبوت.
- **المعنى الإضافي** أو العرضي يضاف للمعنى الأساسي ويكون مفتوحا على الاستعمال، فضلا عن إمكان تغيره.

- **المعنى الأسلوبى**: وهو معنى آخر يتجاوز المعنى الأساسي، ويحكمه إمّا الاستعمال، وإمّا الاختلاف البيئي، وإمّا اختلاف أساليب التواصل يكشف لنا عن طبيعة مستخدم اللّغة.

- **المعنى النفسى**: هو معنى يخصّ الأفراد كلّا على حدة، فهو فردي ذاتي خاص، بمعنى في حديث كلّ فرد معنى نفسى قد يبدو للعيان ظاهرا، وقد يخفى إلّا للباحث الدارس المتأمل.

- **المعنى الإيحائي**: وهذا النوع من المعنى لا يرتبط بالأفراد، وإنّما يرتبط بكلمات خاصة وليس كلّ الكلمات، ويتضح في الألفاظ التي توحى بمعانيها وكأنّها شفاقة...⁵⁴.

المطلب الثالث: نماذج مختارة من توظيف المناسبة وإبراز دلالاتها في تفسير ابن باديس

وللإشارة يحتوي سفر تفسير القرآن الكريم للعلامة عبد الحميد بن باديس الموسوم (بمجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) على ما يربو عن مائة وأربع وعشرين آية من سور متفرقة وسورتي المَعُوذَتَيْن - جمعت في الأصل من أعداد مجلة الشهاب؛ لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - نقتصر على بعض النماذج المناسبة، حفاظا على الإطار المحدد لهذه الورقة البحثية.

الفرع الأول: المناسبة الداخلية

وهي انسجام آيات وألفاظ قرآنية وترابطها برابط خاص أو عام يجمعها في رصفها الذي هي منه، وفي سورة قرآنية التي هي جزء من بنيتها.

أولا: مناسبة الآيات الكريمة من خلال اللاحق والسابق مع ضميماتها في السياق

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ (الإسراء: 12)، يربط ابن باديس هذه الآية الكريمة بما تقدمها من الآيات في الترتيب، ويبحث عن وجه المناسبة القائم بينها وبين سابقتها من الآيات الكريمات، وعن الرابط الدلالي من خلال المنظور السياقي للآيات قصد الفوز بدلالة الآية الكريمة ومعناه العام بنظرة شمولية، قال: "ولما ذكر تعالى آيته ونعمته بالقرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: 9)، ذكر آيته ونعمته بالليل والنهار المتعاقبتين على هذا الكون الأعظم فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾"⁵⁵.

===== قرينة المناسبة في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد بن باديس ودلالاتها من خلال المنظور السياقي

وأضاف ابن عاشور معنى آخر فقال: "والمناسبة: أنَّ جملة (وَيَذْعُو الإنسان) تتضمن أنَّ الإبطاء تأخير الوعد لا يرفعه، وأنَّ الاستعجال لا يجدي صاحبه، لأنَّ لكل شيء أجلا، ولَمَّا كان الأجل عبارة عن أزمان كان شاملا عن ليل ونهار متقضيين، وهذا شائع عند النَّاس في أنَّ الزمان منقضى وإن طال"⁵⁶.

ولم يتوقف ابن باديس ههنا في ما أسلفت، بل راح يمعن النظر في رصف الآية الكريمة ونظمها البديع وبلاغتها العجيبة من خلال ترابط وحداتها بطريقة محكمة بلغت حدَّ الإعجاز، فقال: "فإنَّ لفظ (آيتين) صادق على الليل والنهار، ولفظ (آية الليل وآية النهار) صادق على الشمس والقمر، وعليه يكون تقدير الآية هكذا ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، وهذا تقدير صحيح لا معارض له من جهة اللفظ، ولا من جهة المعنى، وسالم من دعوى تقدير محذوف، ومفيد لكثرة المعنى بأربع آيات، بالليل وقمره والنهار شمس... وليس محو القمر وإبصار الشمس متأخرا عن الليل والنهار، وكيف؟، وما كان الليل والنهار إلَّا باعتبار إضاءة الشمس لجانب وعدم إضاءتها لمقابلته، فليست الفاء في (فمحونا) للترتيب في الوجود، وإنَّما هي للترتيب في الذكر، وللترتيب في التعقل، فإنَّ القمر والشمس بعض من آيات الليل والنهار، والجزء متأخر في التعقل عن الكل"⁵⁷.

والذي ذهب إليه ابن باديس بأنَّ آية الليل هي القمر، وآية النهار هي الشمس يستفاد من سياق الآية نفسها، ومن سياق القرآن الكريم ككل، لأنَّ القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا، فكلمة (فمحونا) مرتبطة بمفعولها (آية الليل)، ودالة على معناه الذي يصدق على القمر "الذي زال ضوؤه بفعل المحو ... وهذا يقتضي أنَّه كان فيها ضوء ثمَّ أزيل، فتفيد الآية من سياقها أنَّ القمر كان مضيئا ثمَّ أزيل ضوؤه فصار مظلماً"⁵⁸

"ويجوز أن تكون (آية الليل) الآية الملازمة له وهي القمر، و(آية النهار) الشمس، فتكون إعادة لفظ (آية) فيهما تنبيه على أنَّ المراد بالآية معنى آخر، وتكون الإضافة حقيقية ويصير دليلا آخر على بديع صنع الله تعالى ... ويكون معنى المحو: أنَّ القمر مطموس لا نور في جرمه، ولكنه يكتسب الإنارة بانعكاس شعاع الشمس على كرتة، ومعنى كون آية النهار مبصرة أنَّ الشمس جعل ضوءها سبب إبصار النَّاس الأشياء، (فمبصرة) اسم فاعل (أبصر) المتعدي، أي جعل غيره باصرا، وهذا أدق معنى، وأعمق في إعجاز القرآن بلاغة وعلماء، فإنَّ هذه الحقيقة من علم الهيئة، وما أعيد لفظ (آية) إلَّا لأجلها"⁵⁹.
"فإضافة الآية إلى الليل والنهار دليل على أنَّ الآيتين المذكورتين لهما لا هما أنفسهما"⁶⁰.

كما يقوي هذا المعنى ما سبق من آيات عقب قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ ترشد إلى كيفية معرفة السنين والحساب، وهذا في السياق السورة نفسها قوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ﴾، والسنون أو السنين والحساب لا تعلم ولا تحدد بصفة أدق إلَّا بآيتي الشمس والقمر، وبالقمر أظهر قال ابن عاشور: "وهي في آية الليل أظهر، لأنَّ جمهور البشر يضبط الشهور والسنين بالليالي، أي حساب القمر"⁶¹.
ولقد سيقَّت آيات في مواضع من القرآن العظيم تؤكد هذا منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس: 5)، وفي سورة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة: 188).

والمناسبة العامة بين هذه الآيات الكريمات من خلال ترتيبها المحكم، ونظمها المعجز وتقديم آية عن ضميماتها من الدلالات المبهرة التي تنير العقول، ولا يتفطن لإحياءاتها إلَّا الراسخون في العلم. منها ما أشار إليها ابن باديس في قوله: "ذكر تعالى الليل والنهار وآيتهما استدلالا على الخلق ليعرفوه، وذكر ما فيها من النعمة عليهم ليشكروه ويعبدوه، فكانت فائدة خلقها على هذا الوجه راجعة للعباد ليبتهغوا ويطلبوا

فضلا من ربهم بالسعي لتحقيق المعاش، وأسباب الحياة، ووجوه المنافع، وليضبطوا أوقاتهم بعلم عدد السنين الشمسية والقمرية⁶².

وفي مثال آخر قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُولًا﴾ (الإسراء: 22)، يتجلى لنا بوضوح اعتماد ابن باديس على توظيف قرينة مناسبة هذه الآية الكريمة باللاحق والسابق من الآيات في إطار سياقها الذي سيقف فيه، بعد أن أشار إلى أن أصول الهداية الإسلامية مجتمعة في ثمان عشرة آية محصورة بين هذه الآية: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُولًا﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْلَى فِي جَهَنَّمَ﴾ (الإسراء: 39)، قال ابن باديس: "فهذه ثمان عشرة آية من سورة الإسراء قد أتت في إيجاز ووضوح على أصول الهداية الإسلامية، وأحاطت بأسباب السعادة في الدارين من جميع وجوهها، وهي فوق بلاغتها التي عرف العرب إعجازها بسليقتهم وأدركه علماء البيان بعلمهم قد جاءت معجزة للخلق من أي جنس كانوا، وبأي لغة نطقوا، بما جمعت من أصول الهداية التي تدركها الفطرة، وتسلمها العقول"⁶³.

فذكر بعد ذلك دلالة هذه الآيات - أصول الهداية - بما فيها الآية المدروسة من خلال ارتباطها وتعلقها بما قبلها في السياق فقال: "ارتباط الآيات بما قبلها: موقع هذه الآيات موقع البيان والتفصيل للسعي المشكور في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾، ووقوعها بلمصق قوله تعالى: ﴿وَلَا آخِرَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ إشارة إلى أن التفاضل في تلك الدرجات مرتبط بالتفاضل في السلوك، والسعي المشكور المستفاد من هذه الآيات"⁶⁴.

وأشار إلى هذه المناسبة الرازي من قبل فقال: "في بيان وجه النظم فنقول: إنه تعالى لما بين أن الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط، وهم أهل العقاب والعذاب، ومنهم من يريد به طاعة الله، وهم أهل الثواب، ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة: أولها: إرادة الآخرة، وثانيها: أن يعمل عملا ويسعى سعيا موافقا لطلب الآخرة، وثالثها: أن يكون مؤمنا، لا جرم فصل في هذه الآية تلك المجلات فبدأ أولا بشرح حقيقة الإيمان، وأشرف أجزاء الإيمان هو التوحيد ونفي الشركاء والأضداد، فقال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، ثم ذكر عقبه سائر الأعمال التي يكون المقدم عليها والمشتغل بها ساعيا سعيا يليق بطلب الآخرة، وصار من الذين سعد طائرهم، وحسن بختهم، وكملت أحوالهم"⁶⁵.

ولم يتوقف ابن باديس عند المناسبة العامة بين الآيات، وإنما تأمل كذلك في كل آية وما يربطها من مناسبة مع ما قبلها أو ما بعدها في الرصف، فأية: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ لها رابط دلالي مع الآية التي تعقبها مباشرة وهي قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، قال ابن باديس: "وكما انتظمت هذه الجملة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية كذلك انتظمت مع الآية السابقة التوحيد العلمي:

فالأولى: نهى عن أن تعتقد الألوهية لسواه، وهو يتضمن النهي عن اعتقاد ربوبية سواه وهذا من باب العلم.

والثانية: أمر بأن تكون عبادتك مقصورة عليه، لأنه هو ربك وحده، وهذا من باب العمل، فمن وجد الله في ربوبيته وألوهيته علما وعملا فقد استكمل حظّه من مقام هذا الأساس العظيم"⁶⁶.

ويمكن في هذا الصدد ذكر المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى والأمر ببر الوالدين والدلالة القائمة بينهما في آية ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ كما رآها الرازي حيث قال: "وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين

===== قرينة المناسبة في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد بن باديس ودلالاتها من خلال المنظور السياقي

الأمر ببر الوالدين من وجوه منها: أنّ السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو تخلق الله تعالى وإيجاده، والسبب الظاهر هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري⁶⁷.

وفي مثال آخر: تعاقبت ثلاث آيات مجتمعة في رصف قرآني عجيب بديع، بحيث كلّ آية تعالج موضوعاً محدداً على حدة من المواضيع الهامة في بناء النسيج المجتمعي على أسس قويّة وأوتاد راسية رصينة، وهذه الآيات الثلاث 31، 32، 33 على الترتيب من سورة الإسراء بداية من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾، فأول ما نلمحه في دراسة الشيخ ابن باديس لهذه الآيات الكريّمات نظرته إلى هذه الآيات مجتمعة بالمنظور السياقي، فاهتدى بفضل توظيف قرينة المناسبة السياقيّة - قصد افتكاك المعنى الجامع في ما بينها وتصيد رابطها الدلالي - إلى تقاطع معانيها حول الحفاظ على النفس البشريّة - وهذا مقصد من مقاصد الدين الإسلامي - وكلّيّة من كليّاته الخمس - يمكن اعتباره المناسبة العامة التي تجمع الآيات الثلاث، قال الشيخ في مجالسه: "هذه النفوس البشريّة جاءت الشرائع السماويّة كلّها بإيجاب حفظها، فكان حفظها أصلاً قطعياً، وكلّيّة عامة في الدين، وجاءت هذه الآيات في تقرير هذا الحفظ من وجوه ثلاثة، سنتكلم عليها واحداً واحداً"⁶⁸.

ثمّ ذكر مناسبة كلّ آية بما تقدمها من الآيات، وأشار إلى الوجوه الثلاثة التي قررتها الآيات الكريمة في حفظ النفس على النحو التالي:

الآية الأولى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ (الإسراء: 31): بيّن الشيخ ابن باديس وجه ارتباط هذه الآية الكريمة التي تنهى عن قتل الأولاد خشية إملاق بما تقدمها من الآيات التي بيّنت أنّ بسط الرزق وقبضه ممّا أختص به الخالق سبحانه وتعالى دون غيره، لا يشاركه فيه أحد، فأرزاق المخلوقات بيده جلّ وعلا، وعلى هذا الأساس كما قال الشيخ: "أبطل تعالى خوفهم من الفقر بقوله ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، فأخبر أنّ رزق الجميع عليه... لا فرق في ذلك بين الذكر والأنثى، والكبير والصغير، كما أنّه تعالى هو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر كما في الآية السابقة، فهما مرتبطان بهذه المناسبة"⁶⁹.

ولقد أشار الرازي في تفسيره الكبير إلى مناسبة نفيسة بين هذه الآية والآية المتقدمة في السياق وهي قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، قال: "إنّهُ تعالى لمّا علّم كيفية البر بالوالدين في الآية المتقدمة علّم في هذه الآية كيفية البر بالأولاد"⁷⁰.

للإشارة وردت هذه الآية الكريمة في سورتي الأنعام والإسراء بصيغتين مختلفتين من حيث تنكير وتعريف بعض ألفاظها وتقديم وتأخير بعضها في الرّصف الذي هي فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام: 151)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (الإسراء: 31)، "وليست إحداهما تكراراً للأخرى، وإنّما كلّ واحدة منهما تعالج حالة معيّنة"⁷¹، ففي الأنعام قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ بعد أن نهى عن قتل الأولاد قال (من إملاق) "لأنّ النهي متوجه أصالة إلى الآباء المعسرّين، أي لا تقتلوا بسبب الفقر الموجود فيكم... فقد يجعل الله بعد عسر يسرا، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، فجعل الرزق للآباء ابتداءً لكي يطمئنهم سبحانه على أنّه هو الكفيل برزقهم وبرزق أولادهم"⁷².

أمّا آية الإسراء ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فقال فيها تعالى بعد النهي عن قتل الأولاد (خشية إملاق) "لأنّ النهي موجه بالأصالة إلى الموسرين الذين يقتلون أولادهم لا من فقر كائن فيهم، وإنّما من فقر هم يتوهمون حصوله في المستقبل بسبب الأولاد، ولذا قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، فقدم رزق الأولاد لأنّهم

سبب توقع - في زعم آبائهم - لكي يمتنع الآباء عن هذا التوقع، ولكي يضمن للأولاد رزقهم ابتداءً مستقلاً عن رزق الأولاد⁷³. وقريئة الإضافة كم في ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ للدلالة على هذا الفعل الشنيع. قال الشيخ ابن باديس: "بين تعالى فضاغة هذا القتل بقوله (أولادكم) بإضافة الأولاد إليهم، فإن الأولاد أفلاد الأكباد، وبضعة من لحم المرء ودمه...، وأي خير يرجى من قاتل ولده لغيره من الناس بعد ما جنى أفضع الجنايات على ألصق الناس"⁷⁴.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: 32)، فاحشة الزنا من المحرمات التي نهى الله عنها لما يترتب عن هذا الفعل الشنيع من مخاطر جسام منها:

- الوقوع في ما نهى الله عنه نهى تحريم يستوجب العقوبة والإثم إلا من تاب.
- إضاعة النسب واختلاطه.
- انتشار الأمراض الخطيرة المستعصية، وهذا ما أثبتته الواقع والطب المعاصر.

والزنا نوع من أنواع القتل فهو يشبه الوأد في الإضاعة، فهذه الآية الكريمة مرتبطة بما قبلها ارتباطاً وثيقاً، وتتقاطع معها في مآل مخالفة النهي، والحكمة العامة وهي قتل النفس بغير حق، قال صاحب التحرير والتنوير: "عطف هذا النهي على النهي عن وأد البنات إيماء إلى أنهم كانوا يعدّون من أعدائهم في وأد البنات الخشية من العار الذي قد يلحق من جراء إهمال البنات الناشئ عن الفقر الرامي إلى العهر، ولأنّ في الزنا إضاعة نسب النسل، بحيث لا يعرف مرجع يأوي إليه، وهو يشبه الوأد في الإضاعة"⁷⁵، وإن كان سياق الآية الكريمة في معالجة ظاهرة الزنا المنافية للفطرة السليمة من باب تخصيص السبب إلا أنّ "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والحكم يُعمّ بعموم اللفظ، كما أنّ ذكر سبب القتل في الآية لا يقتضي التخصيص لأنّه ذكر تصوير الحال الذي كانوا عليه، فالقتل حرام لأيّ سبب كان"⁷⁶.

فالمناسبة بين هذه الآية والتي سبقتها في الترتيب قال الشيخ ابن باديس: "بعد ما نهى عن قتل الأولاد نهى عن الزنا الذي هو كقتلهم، لأنّه سبب لوجودهم غير مشروع"⁷⁷.

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الإسراء: 33)، فوجه المناسبة أو الارتباط بين هذه الآية والآيتين السابقتين هو ارتباط الخاص بالعام، وفائدته تأكيد نهى وتحريم قتل النفس البشريّة إلا بالحق، قال الشيخ ابن باديس: "جاء أسلوب هذه الآيات تدرجاً من الخاص إلى العام، فقتل للنفس التي حرم الله، والزنا كالقتل للنفس كما قدمناه، وجيء هنا بالنهي الصريح عن قتل النفس، وأكد مقتضى النهي بوصف النفس بقوله (التي حرم الله)، والتحريم هو المنع، (فحرم الله) معناه: منع الله، والتقدير: حرم الله قتلها، فحذف لدلالة (لا تقتلوا) عليه، فالنهي عنه هو القتل، والمحرم هو القتل، فتأكد المنع بالنهي والتحريم"⁷⁸.

ثانياً: مناسبة ألفاظ الآيات القرآنيّة

هذا النوع من المناسبات لم يغفل عنه الشيخ رحمه الله تعالى، بل فصلّ فيه وأوضح أوجه التناسب والترابط بين الكلمات في رصفها القرآني، وعبر عنه الشيخ بـ (بلاغة التنويع والتنزيل)، فعلى سبيل المثال جاء في القرآن الكريم من سورة الذاريات الآيات من 47 إلى 51 كلمات متناسقة فيما بينها، لها من التناسب والترابط في رصفها السياقي ما يعجز وبيهر.

- ذكرت لفظة (السماء) والسماء ثابتة يناسبها (البناء)، والبناء تناسبه (القوة)، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾.

===== قرينة المناسبة في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد بن باديس ودلالاتها من خلال المنظور السياقي

- وفي السياق نفسه ذكرت لفظة (الأرض)، والأرض متغيرة يناسبها (الفراش والتمهيد)، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾.

- وذكرت لفظة (الأزواج)، والأزواج مكونة من شيئين يناسبها (الخلق) الذي يدل على تكوينه، وهذه إشارة إلى أَنَّ كُلَّ المخلوقات يعثرها النقص والعجز لاحتياج كل زوج للآخر، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ومن وجه آخر يفهم من الآية الكريمة أَنَّ الله هو الواحد الأحد لا مثيل له، الخالق لكل شيء، المتصرف في خلقه... قال ابن باديس: "لَمَّا كَانَتِ السَّمَاءُ مِتْلَاحِمَةً الْأَجْزَاءِ فِي الْعِلَاءِ، ثَابِتَةً عَلَى حَالَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى الْبَقَاءِ نَاسِبَهَا لَفْظُ (الْبِنَاءِ)، وَلَمَّا كَانَتِ مَظْهَرُ الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ نَاسِبَهَا لَفْظُ (الْقُوَّةِ)، وَلَمَّا كَانَتِ الْأَرْضُ يَطْرَأُ عَلَيْهَا التَّبْدِيلُ وَالتَّغْيِيرُ... نَاسِبَهَا لَفْظُ (الْفَرَّاشِ) الَّذِي يَبْسُطُ وَيَطْوِي، وَيَبْدَلُ وَيَغْيِرُ، وَلَمَّا كَانَتِ أَسْبَابُ الْإِنْتِفَاعِ الْمِيسِرَةِ ضَرُورِيَّةً لِلْحَيَاةِ عَلَيْهَا... مِنْهَا مَشَاهِدٌ وَغَيْرُ مَعْدٍّ يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْبَحْثِ وَالِاسْتِنْبَاطِ نَاسِبٌ ذِكْرُ التَّمْهِيدِ (الْمَاهِدُونَ)، وَلَمَّا كَانَتِ الْأَزْوَاجُ مُكُونًا بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ نَاسِبَهَا لَفْظُ (الْحُلُقِ)، وَلَمَّا كَانَ النَّظَرُ فِي الزَّوْجَيْنِ هُوَ نَظَرٌ فِي أَسَاسِ التَّكْوِينِ لِتِلْكَ الْمَذْكُورَاتِ... هُوَ مُحْصَلٌ لِلْعِلْمِ الَّذِي يَحْصُلُ مِنَ النَّظَرِ فِيهَا قَرْنَ بِلَفْظِ التَّذَكُّرِ"⁷⁹.

الفرع الثاني: المناسبة الخارجية

أعني بالمناسبة الخارجية مناسبة آية كريمة وارتباطها بآيات أخر خارجة عن رصفها الذي هي فيه، أي أَنَّ الآية مرتبطة بآية أو آيات من سور قرآنية أخر مشكلة لها، وليس المقصود ارتباطها بآيات السورة التي هي جزء منها؛ أو ارتباط سورة بسورة... وإن كان القرآن - كما أسلفنا - كلا متكاملًا يفسر بعضه بعضا.

أولاً: مناسبة ارتباط آية بآية أخرى من غير سورتها

أذكر على سبيل المثال لا الحصر آية الإسراء التي أسلفنا ذكرها في تحريم قتل النفس البشرية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الإسراء: 33)، وهذه الآية الكريمة من المُجْمَل كما قال العلماء، نزلت بمكة المكرمة، والمجمل من أي القرآن الكريم من أعلى مراتب تبيينه وتفسيره أن يُفسر بأي أخر مشكلة لها، إذ القرآن وحدة سياقية كبرى يفسر بعضه بعضا، ولقد أشار ابن القيم إلى هذا، من خلال أهمية السياق في الإفصاح عن معاني الكلام وتبيينه بقوله: "السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته"⁸⁰.

فوجه ارتباط هذه الآية بغيرها من الآيات الخارجة عن سورتها كما قال ابن عاشور: "ولمَّا كَانَتِ هَذِهِ الْآيَاتُ سَيِّقَتِ مَسَاقَ التَّشْرِيعِ لِلْأُمَّةِ، وَإِشْعَارًا بِأَن سَيَكُونُ فِي الْأُمَّةِ قَضَاءٌ وَحُكْمٌ فِيمَا يَسْتَقْبَلُ أَبْقَى مَجْمَلًا حَتَّى تَفْسِرَهُ الْأَحْكَامُ الْمُسْتَأْنَفَةُ مِنْ بَعْدِ مِثْلِ آيَةٍ - سُورَةُ الْأَنْعَامِ الْمَدْنِيَّةِ - ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾"⁸¹.

والشيخ عبد الحميد بن باديس تتبع أوجه المناسبة والرباط الدلالي بين الآية القرآنية والآيات المشكلة لها في سور غير سورتها، فعلى سبيل المثال ذكر المناسبة بين مطلع سورة يس الآية 1، 2، 3 والآيات المرتبطة بها من سور أخر على غرار قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ (الرعد: 43)، من أجل الوقوف على الرباط الدلالي الجامع بين هذه الآيات وافتكاك المعنى المقصود والغرض من الآية الكريمة فقال: "أقسم الله تعالى بالقرآن الحكيم على أَنَّ محمداً ﷺ من المرسلين، رداً على من قالوا:

(لَسْتُ مُرْسَلًا) في حال أنه على دين الإسلام الذي بعثه الله به ثابتا عليه في عقده وقوله وفعله وجميع أمره...، وبين تعالى أنه كان من المسلمين لينذر الأمة العربية، ويعلمها سوء عاقبة ما هي عليه من الشرك والضلال⁸².

ثانيا: المناسبة بين السور

المناسبة بين السور من ألطف المواضيع القرآنية وأدقها، لا ينبغي لها إلا العلماء الراسخون في هذا العلم الشريف لصعوبة افتكاك دلالاتها المتوخاة من ترابط السور القرآنية فيما بينها من حيث مناسبة سورة بسورة، أو مناسبة آخر سورة بما يعقبها من مطلع سورة موائية لها في ترتيب المصحف الشريف... ذكر الزركشي عن بعض الأئمة أسرار ترابط سور القرآن الكريم والعقد الدلالي الجامع المعجز البديع لهذه السور الكريمة المرتبة في المصحف الإمام ترتيبا توقيفيا فقال: "وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه في دين الإسلام والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكمل لمقصودها، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن الشبهات...، أما سورة النساء فتتضمن جميع أحكام الأنساب التي بين الناس...، وأما المائدة فسورة العقود وبها تمام الشرائع، قالوا: وبها تمّ الدين، فهي سورة التكميل، بها ذكر الوسائل كما في الأنعام والأعراف ذكر المقاصد..."⁸³.

والشيخ ابن باديس ممّن له قدم راسخة في هذا الباب والكعب العالي فيذكر - مثلا - دلالات الترابط بين سورتي الفلق والنّاس وأوجه تقاطعهما بفضل توظيف السياق القرآني من خلال قرينة المناسبة، وهي المناسبة العامة المتوخاة من سياق السورتين الكريمتين قال: "والمناسبة بين السورتين يرشد إليهما اشتراكهما في الوصف، وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما، وفي السورة الأولى (الفلق) الاستعاذة من الشرّ العام - ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ -، ومن ثلاثة أنواع - المخصصة في السورة - ... وفي هذه السورة - أي سورة النّاس - الاستعاذة من شرّ واحد (الوسواس الخناس) لكنّه سبب في شرور كثيرة"⁸⁴.

أما المناسبة الخاصة أو المناسبة القرية من السورتين كما سماها الشيخ فهي: "أنّ النفوس ثلاثة أقسام: - قسم يصدر منه الضرر ويعمله - وقسم لا يريد الخير، فيسعى في سلبه وانتزاعه، وهي شرّ من الأول - وقسم يعمل إلى إيصال الشرّ إلى سلطان الجوارح ومالك هديّها - وهو القلب - وهذا القسم الأخير هو الذي يوسوس بكلمة السوء مُزَيِّنة الظاهر مغطاة القبح حتى تستنزل صاحبها إلى الهلاك، ولما كان هذا القسم أعظم خطرا وأكثر شرا خصص التعوذ منه بسورة كاملة"⁸⁵، "والجامع بين الثلاثة هو اشتراكهما في الخفاء، فإنّ الغاسق ظلام تختفي فيه الشرور، والنفاثات مبني أمرهنّ على الإخفاء تخيلا وإيهاما، والحسد داء دفين"⁸⁶.

وفي خاتمة هذا المطلب المقتضب، أردت أن يرصع بفائدة جليّة من درر العلامة عبد الحميد بن باديس، لما تتسم به هذه الفائدة من اتصال وثيق بهذا الموضوع، ولعلّها تشير إلى المناسبة العامة بين سورتي المعوذتين اللّتين ختم بهما المصحف الشريف، والسابق من السور القرآنية المرتبة فيه ترتيبا توقيفيا، هذا من جهة، ومن شقّ آخر تحمل بين ثناياها نصيحة ثمينة لطالب العلم والباحث في درر هذا القرآن العظيم غير المتناهية، وكنهه الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، قال رحمه الله تعالى: "أنّ من أوتي القرآن وتفقّه فيه، فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وأحاط بالعلم من أطرافه، وملك كنزّه الذي لا ينفذ، وأنّ من آفات العلم اغترار صاحبه به، وقد يتمادى به الغرور حتى يُسَوِّلَ له أنّ ما أوتيّه من العلم كاف في وقايته من الأضرار، ونجاته من الأضرار، فكان من رحمة الله بصاحب القرآن ولطف تأديبه

===== قرينة المناسبة في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد بن باديس ودلالاتها من خلال المنظور السياقي

له وحسن عنايته به أن ختم بهاتين السورتين كتابه لتكونا آخر ما يستوقف القارئ المتفقه، وينبئه أن في العلم والحكمة مسألة لم يفهمها إلا الآن، وهي أنه مهما امتد في العلم باعه، واشتد بالحكمة اضطلاعاً فإنه لا يستغني عن الله، ولا بد له من الالتجاء إليه، والاعتصام به يستدفع به شرّ الأشرار، وحسد الحاسدين، وكفى بهذه التربيّة قاماً للغرور، وإنه لشرّ الشرور"87.

خاتمة:

مجل القول أن فهم كلام الله عزّ وجل هو الغاية المرجوة، وإدراك معانيه والوقوف على دلالاته وإحياءاته المتجددة بتجدد الأزمنة هو الباعث الأساس لكلّ باحث جاد في استخراج درر هذا الخطاب الرباني الممتد الذي لا تنقضي عجائبه، وقرينة المناسبة كما أسلفت في هذا البحث من بين أهم القرائن - وبخاصة إذا ما تضافرت مع ضميماتها - ذات مقدرة على كشف دلالات القرآن الكريم وإيماءاته، إن وظفت بطريقة سلسلة كما في تفسير ابن باديس، ويمكن إجمال نتائج هذه الدراسة في ما يلي:

- 1- إنّ أهمية علم المناسبة في استنباط الدلالات القرآنية وترجيح معاني الآيات من خلال ارتباط بعضها ببعض في نظم دقيق و انسجام تام، بالنظر إليها ذهاباً وإياباً في صورة متكاملة الأبعاد يرسمها سياقها الذي هي فيه؛ أو ما يشاكلها من سياقات متشابهة يربطها خيط دلالي جامع؛ أو وجه مناسبة عام أو خاص تشترك فيه الآيات القرآنية، وهذا ما هو موظف في تأويل القرآن الكريم أو تفسيره عند الشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال نماذج مختارة من الآيات القرآنية في مجالسه، إذ لا تكاد تخلو آية من الآيات المعالجة في تفسيره من قرينة المناسبة التي أضفت على تفسيره المتميّز منحى تفسيريّاً سياقياً للقرآن الكريم، تستنبط من خلاله المعاني والدلالات القرآنية بمنظور شمولي.
- 2- أنّ المناسبة قرينة سياقية لا يمكن الوصول إليها والظفر بدلالاتها إلا من خلال السياق.
- 3- أنّ علم المناسبة القرآني يعنى بدلالات ومعاني الآيات والسور التي يربطها جامع مشترك، فهو أدخل في الدرس الدلالي.
- 4- أنّ المناسبة القرآنية حقل ثرّ ومجال مفتوح أمام اجتهادات العلماء والباحثين لاستثارة دلالات القرآن العظيم ومعانيه، وهذا لأنّ القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه، ولا تفنى غرائبه، مباحثه متجددة ممتدة.
- 5- يبرز البحث اهتمام علم من أعلام الجزائر وعلمائها - الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس - وإسهاماته في هذا العلم الدقيق (علم المناسبة)، وتوظيفه في استنباط الدلالات القرآنية، واستثارة المعاني العامة والخاصة لأي القرآن الكريم وسوره من خلال المزوجة بين الدرس القرآني والدرس اللغوي.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- جلال الدين السيوطي (ت911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
- 2- بدر الدين الزركشي (ت794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط3، 1980م.
- 3- أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي (ت708هـ)، في تناسب سور القرآن، تحقيق: د/ سعيد بن جمعة الفلاح، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية ط1، 1428هـ.
- 4- صبحي صالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط10، 1977م.
- 5- أحمد بن فارس (ت395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1991م.
- 6- محمد بن عمر بازمول، علم المناسبات في السور والآيات، المكتبة المكية، مكة المكرمة، ط1، 2002م.
- 7- برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ط) (د.ت).

- 8- أبو محمد السجلماسي، المنزوع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، (د.ط)، 1401 هـ.
- 9- حسن العطار (ت1250هـ)، حاشية العطار على شرح جلال الدين المحلي على متن جمع الجوامع للسبكي، دار الكتب العلمية، لبنان، (د.ط)، 1420 هـ.
- 10- عبد الحميد بن باديس (ت1359هـ)، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار البعث للنشر، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1982 م.
- 11- خليفة بوجادي، محاضرات في علم الدلالة، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009م.
- 12- عثمان أبو الفتح بن جني (ت392هـ)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ط) (د.ت).
- 1- محمد الطاهر بن عاشور (ت1393هـ) التحرير والتنوير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1984م.
- 14- محمد الأمين الشنقيطي (ت1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط المملكة المغربية، (د.ط).
- 15- فخر الدين الرازي (ت606هـ)، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، (د.ط).
- 16- محمد سيد طنطاوي (ت1431هـ)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار السعادة، مصر، 2007م.
- 17- شمس الدين بن قيم الجوزية (ت751هـ)، بدائع الفوائد، تحقيق: محمد الإسكندراني وعدنان درويش، دار الكتاب العربي، لبنان، (د.ط)، 2006م.
- 18- أحمد بن محمد الصاوي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (المحلي والسيوطي)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، القاهرة، (د.ط).
- 19- محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر، بيروت، (د.ط).
- 20- جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ط).
- 21- محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، التحقيق: جماعة من المختصين، إصدارات وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، ط1385 هـ.
- 22- أبو زيد نوري سعودي، الدليل النظري في علم الدلالة، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر، ط2007م.
- 23- الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت، والدار الشامية دمشق، ط1، 1412 هـ.
- 24- الشريف علي بن محمد بن علي الزين الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403 هـ - 1983م.
- 25- إبراهيم أبو إسحاق الشاطبي اللخمي، الموافقات في أصول الأحكام، تحقيق: محمد الخضر حسين، دار الفكر، (د.ط).
- 26- المبارك محمد، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1982م.
- 27- ناصف مصطفى، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت، ط2، (د.ت).
- 28- عمر أحمد مختار، علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ط1، 1982م.
- 29- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1979م.
- 30- الحجازي فهمي، علم اللغة العربية، دار غريب للطباعة والنشر القاهرة، (د.ت).
- 31- مجد الدين محمد الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مراجعة: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، لبنان، ط2008م.
- 32- جمال الدين محمد أبو الفضل بن مكرم بن منظور، لسان اللسان تهذيب لسان العرب، تمّ تهذيبه بإشراف: عبد علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.

الهوامش:

- 1- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص 471.
- 2- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط3، 1980م، 136/1.
- 3- بدر الدين الزركشي، البرهان، المصدر نفسه، 136/1.
- 4- أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق: د/ سعيد بن جمعة الفلاح، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1428 هـ، ص 55.
- 5- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص 470.
- 6- صبحي صالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط10، 1977م، ص 151.

- 7- البرهان في تناسب سور القرآن، ص 70.
- 8- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة العربية، تحقيق: شهاب الدين أبي عمران، دار الفكر، لبنان، ط 2، 117/3.
- 9- جمال الدين محمد أبو الفضل بن مكرم بن منظور، لسان اللسان تهذيب لسان العرب، تمّ تهذيبه بإشراف: عبدأ علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1993م، 639/1.
- 10- مجد الدين محمد الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مراجعة: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، لبنان، ط 2008، ص 962.
- 11- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 360/9.
- 12- المرجع السابق، 21 / 241
- 13- أحمد بن محمد الصاوي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (المحلي والسيوطي)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد القاهرة، 636/3.
- 14- محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر، بيروت، 323/5.
- 15- أبو محمد السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط 1401هـ، ص 188.
- 16- حسن العطار، حاشية العطار على شرح جلال الدين المحلي على متن جمع الجوامع، للسبكي، دار الكتب العلمية، لبنان، (د.ط)، 1420هـ، 30/1.
- 17- شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق: محمد الإسكندراني وعدنان درويش، دار الكتاب العربي، ط 2006، 540/4.
- 18- إبراهيم أبو إسحاق الشاطبي اللخمي، الموافقات في أصول الأحكام، تحقيق: محمد الخضر حسين، دار الفكر، 44/2.
- 19- المصدر السابق، 44/2 - 45.
- 20- المصدر السابق، 45/2.
- 21- المبارك محمد، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 2، 1982م، ص 182-183.
- 22- ناصف مصطفى، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس بيروت، ط 2، (د.ت)، ص 161.
- 23- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1979م، ص 346.
- 24- الحجازي فهمي، علم اللغة العربية، دار غريب للطباعة والنشر القاهرة، (د.ت)، ص 13-14.
- 25- الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط 3، 1980م، 136/1.
- 26- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة العربية، 422/5.
- 27- جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص 445.
- 28- محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، التحقيق: جماعة من المختصين، إصدارات وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، ط 1385هـ، 265/4.
- 29- البرهان للزركشي 35/1.
- 30- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 36/1.
- 31- البقاعي، نظم الدرر، 6 / 1
- 32- ينظر: الإتيان في علوم القرآن، ص 471.
- 33- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 37 / 1.
- 34- محمد بن عمر بازمول علم المناسبات في السور والآيات المكتبة المكية ط 1 مكة المكرمة 2002م ص 28
- 35- ينظر الإتيان في علوم القرآن، ص 471.
- 36- الزركشي البرهان في علوم القرآن، 35 / 1.
- 37- الإتيان، المصدر نفسه، ص 471.
- 38- الإتيان، المصدر نفسه، ص 473.
- 39- برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ط) (د.ت)، 6 / 1.
- 40- عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار البعث للنشر، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 1982م، ص 316.
- 41- خليفة بوجادي، محاضرات في علم الدلالة، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2009م، ص 17.
- 42- الزمخشري، أساس البلاغة، ص 134.
- 43- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ص 1075.
- 44- ينظر: أبو زيد نوري سعودي، الدليل النظري في علم الدلالة، ص 36.

- 45- بوجادي خليفة، محاضرات في علم الدلالة، دار الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2009م، ص 22.
- 46- الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم بيروت والدار الشامية، دمشق، ط 1، 1412هـ، ص 316 - 317.
- 47- الشريف علي بن محمد بن علي الزين الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1403هـ-1983م، ص 104.
- 48- بوجادي، محاضرات في علم الدلالة، ص 23.
- 49- عمر أحمد مختار، علم الدلالة، ص 11.
- 50- المرجع السابق، ص 11.
- 51- بوجادي، محاضرات في علم الدلالة، ص 24.
- 52- المرجع نفسه، ص 17.
- 53- عثمان أبو الفتح بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ط) (د.ت)، 152/1 - 153.
- 54- محاضرات في علم الدلالة، ص 72 - 73.
- 55- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 75.
- 56- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1، 1984م، 43/15.
- 57- ينظر مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 76 - 77 - 76.
- 58- المرجع نفسه، ص 77.
- 59- التحرير والتنوير، 44/15.
- 60- محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، المملكة المغربية، (د.ط)، 380/3.
- 61- التحرير والتنوير، 45 / 15.
- 62- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 78.
- 63- المرجع نفسه مجالس التذكير، ص 94.
- 64- المرجع نفسه مجالس التذكير، ص 94 - 95.
- 65- الإمام فخر الدين الرازي التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 188 / 20.
- 66- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 95.
- 67- التفسير الكبير، 185/20.
- 68- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 125.
- 69- ينظر: المرجع نفسه مجالس التذكير، ص 125 - 126.
- 70- التفسير الكبير، 196/20.
- 71- محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار السعادة، مصر، ط 1، 2007م، 338/8.
- 72- المرجع نفسه، 338/8.
- 73- المرجع نفسه، 338/8.
- 74- مجالس التذكير، ص 126.
- 75- التحرير والتنوير، 88/15.
- 76- مجالس التذكير، ص 126.
- 77- المرجع نفسه، ص 127.
- 78- المرجع نفسه، ص 128.
- 79- المرجع نفسه، ص 391.
- 80- شمس الدين بن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق: محمد الإسكندراني وعدنان درويش، دار الكتاب العربي، لبنان، (د.ط)، 2006م، 540 / 4.
- 81- ينظر التحرير والتنوير، 501/4.
- 82- مجالس التذكير، ص 365.
- 83- البرهان للزركشي، 161/1 - 162.
- 84- ينظر: مجالس التذكير، ص 415.
- 85- المرجع نفسه، ص 415.
- 86- المرجع نفسه، ص 415.
- 87- المرجع نفسه، ص 403.